منهج الظاهرتية والبحث في الإعلام والإتصال

د. أحمد بن مرسلي

معهد علوم الاعلام والاتصال - جامعة الجزائر

مقدمة:

إن موضوع دراسة المنهج الظاهرتي "Méthode phénoménologique" أي منهج علم دراسة الظواهر، وعلاقته بالبحث في الإعلام والإتصال يكتسي أهمية كبيرة، خاصة في عصرنا الحاضر، عصر انتقال الإنسان من المجتمعات الصناعية، حيث الروابط الاجتماعية التقليدية القائمة على التعاقد بين الأفراد إلى عصر ما يسمى اليوم بعصر المجتمعات الإعلامية، التي سيطرت فيها صناعات الإعلام والإتصال، من إنتاج للمعلومة، وتصنيع لتقنيات بثها ونشرها وتخزينها على كافة النشاطات المختلفة المتعلقة بالإنسان، وتسيير المجتمع(1). وهو ما أدى إلى اتساع ظاهرة الإعلام والإتصال، وتعقدها أكثر. مما يفرض مزيدا من الجهود البحثية لمسايرة هذا التطور من حيث كشف طبيعته، والتعرف على حركياته،

وحصر تأثيراته المختلفة على الفرد والمجتمع. وبالتالي فإن الدارس لهذا المجال في حاجة إلى مزيد من أدوات، وطرق البحث لضمان نجاحه في مسعاه هذا.

ووفقا لذلك، فإن رجل الإعلام اليوم في معالجته للظاهرة الإعلامية مضطر إلى التعامل أيضا مع أدوات ومناهج علمية عُرفت حتى الآن باستخدامها المحدود في أبحاث العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهذا إلى جانب تلك المستعملة اليوم وعلى نطاق واسع في المجال المشار إليه، والقائمة أساسا على الملاحظة والتجربة. مثل: المنهج المسحي، والمنهج التجريبي، وأسلوب تحليل المضمون إلخ.... ومن ذلك فإن الظاهرتية كعلم متخصص في دراسة الظواهر وفق منهج معين وانطلاقا من وجهة نظر متميزة عن ما يطرح في المذهبين: المادي، والتأملي في الحقل المذكور(2)، يمكن أن تساعد على بحث الظاهرة الإعلامية في توسعها، وتعقدها، كما سجل منذ قليل. الأمر الذي يدعو إلى ضرورة التقريب بين هذا العلم ومنهجه البحثي، ودراسات الإعلام والإتصال. وهي الغاية التي جاءت هذه الدراسة تنشدها، قصد المساهمة في محاولة وضع اللبنات الأولى لهذا التقارب. وقبل التعرض إلى ذلك لا بد من التعرف على الظاهرتية بأبعادها المختلفة، ثم بعد ذلك على منهجها.

تعريف الظاهرتية

إن الظاهرتية هي ترجمة للكلمة: phénoménologie - فمنولوجي. ذات الأصل الغربي المرتبط بفكر الفيلسوف الرياضي الألماني Edmont Husserl - إدمون هوسرل(3). وهي ليست الترجمة الوحيدة لهذا المصطلح المتداولة في اللغة العربية، حيث نجد إلى جانبها كلمة الظواهرية إشارة إلى المصطلح نفسه المستخدمة من طرف سمير كرم في ترجمة الموسوعة الفلسفية للمؤلف: م. روزنتال(4) وكلمة: علم الظواهر المستخدمة في ترجمة الموسوعة الفلسفية المختصرة(5) من طرف

الباحثين: فؤاد كامل، طلال العشري، وعبد الرشيد الصادق إشارة أيضا إلى هذا المصطلح. كما استخدم هؤلاء الثلاثة الكلمة الغربية: فمنولوجيا كما هي بدون ترجمة في الغرض نفسه(6).

ويستخلص من هذه المقدمة البسيطة أن الظاهرتية، أو الظواهرية، أو علم دراسة الظواهر، أو الفمنولوجيا هي مترادفات تفيد المصطلح الواحد الغربي: phénomé-nologie: العلم الذي أسسه ادمون هوسرل في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، والمتخصص في دراسة الظواهر، بمعنى كل ما يتجلى للمعرفة(7).

وقبل التطرق إلى المبادئ التي يقوم عليها هذا العلم، ومنهج دراسته للظواهر لا بد من الإشارة هنا إلى أن كلمة الظواهرية كمصطلح وجد قبل أن يرتبط بمذهب هوسرل، لكن للدلالة على مفاهيم أخرى لا علاقة لها بما طرحه هذا الأخير من أفكار. لأن أول ظهور لمصطلح الظاهرتية كان سنة 1764 في النص الذي نشره J. H. Lambert - ج. هـ. لومبار تحت عنوان: "neues. organon" للإشارة من خلاله إلى نظرية المظاهر الموضوعية théorie des apparences objectives(8).

كما استخدم «Kant - كانط» بدوره مصطلح الظاهرتية في رسالة له إلى لومبار سنة 1770 فيما دعاه: phénoménologia généralis - الظاهرتية العامة. للدلالة من خلاله على العلم الذي يجب أن يسبق حسبه دراسة الميتافيزيقا.

أعاد كانط استخدام مصطلح الظاهرتية في رسالة له إلى Marcus Herz - ماركوس هارز في 21 فيفري 1772 والتي تحدث فيها عن مشروع كتاب له في طور الإنجاز بعنوان: critique de la raison pure - نقد العقل الخالص، حيث أشار في عنوان الباب الأول إلى ما أسماه: La phénoménologie en générale - الظاهرتية بصفة عامة. لكن كانط فيما بعد تراجع عن هذا العنوان لصالح

استخدام العنوان الجديد: Esthétique transcendentale - الجمال العقلي المحض. وبالرغم من هذا التغيير، إلا أن نقد كانط هذا لم يخل من تناوله للظاهرتية من خلال بحثه لموضوع بناء الذات، ووظائف الفكر، وتحديد ميدان المتجلى. أي الظاهرة(9). لكن هذا التعامل لكانط مع موضوع الظاهرتية لم يتجاوز حدود الإستخدام الضيق المرتبط بشخصه لأن هيغل: Hegel - بعده سنة 1806 في كتابه: phénoménologie de l'esprit - ظاهرتية الفكر - هو الذي كان له الفضل الأول في ادخال هذا المصطلح في الإستعمال الفلسفي (المثالية الألمانية) العادي منذ ذلك التاريخ إلى اليوم. لكن للدلالة من خلاله على الوصف التاريخي النفسي الروحي للوعي الإنساني في حركته المنطلقة من الرغبة الحسية، والأنانية إلى الحكمة المطلقة(10).

ما يمكن استنتاجه بهذا الصدد مما سبق هو أن هذه المرحلة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) تميزت بهيمنة الفلسفة المثالية الألمانية بزعامة هيغل، والمادية الكانطية على الفكر الغربي في ألمانيا(11). وقد تزامن مع هذه الهيمنة في نهاية القرن التاسع عشر، حصول أزمة حادة عاشتها العلوم الإنسانية، خاصة بعد انفصال الرياضيات عن العلوم التي تعتمد على الحدس في صياغة معارفها، من خلال توصلها إلى بناء أنظمتها العلمية التي ساعدتها على توحيد فروعها في تخصص واحد، وفشل محاولات إعادة تأسيس علم النفس وفق الإتجاه الوضعي كعلم دقيق على غرار العلوم الطبيعية. وتجلى هذا الفشل للباحثين خاصة بعد سنة 1880 حيث عاش الفكر الوضعي هزة عنيفة أفقدته مصداقيته العلمية، بعدما انتشرت الشكوك حوله، وكثرت التساؤلات عن الأسس التي يقوم عليها، وعن أبعاده كعلم(12).

في خضم الأزمة التي عرفتها العلوم الإنسانية خلال هذه المرحلة، ظهر

الفيلسوف الرياضي الألماني هوسرل (1859-1939) الذي واكب النجاحات التي حققتها الرياضيات آنذاك، خاصة بعد توصل «G. Cantor - ج. كانتور» إلى تكوين نظرية المجموعات التي ساعدت هذا العلم على الإنطلاق نحو آفاقه الجديدة، وعايشها عن قرب باعتباره درس الرياضيات في جامعة: «Weiertrass - ويرتراس» وقام هناك بتحضير أطروحة حول حساب المتغيرات، لكن فقط حتى سنة 1884، التاريخ الذي توقف فيه عن الإهتمام بالرياضيات بعد انسحابه من منصب معيد، الذي عين فيه في جامعة ويرتراس وإنتقاله إلى جامعة هال في فيينا (1884-1886) ليتصل هناك بعالم النفس التجريبي «Franz. Brenta-no - فرانز بروتانو» الذي كان له الفضل الأول آنذاك في وضع منهج جديد للتعرف على كل ما هو نفساني (psychisme) لدى الشخص. حيث اطلع هوسرل على أفكار هذا الأخير، وتأثر بها، خاصة ما تعلق منها بعلم النفس القصدي(13).

بدأت محاولات هوسرل بتأسيس علمه الجديد: الظاهرتية برفضه للأوضاع الفكرية التي سادت في ألمانيا آنذاك، خاصة منها أفكار كانط المادية، وطروحات مدرسة warzbourg - وارزبورڤ» في مجال علم النفس، إلى جانب نقد أفكار هيغل المثالية، والمذهب التجريبي المرتبط بالتطور العلمي والتكنولوجي. حيث إتهم الإتجاهات الفكرية السالفة الذكر بعدم الطرح المعرفي الوفي للأشياء (الظواهر) في معالجتها لها. وحسبه فإن المثاليين في تفسيرهم للظواهر يقومون باعتماد معرفة داخلية ذاتية نابعة من أنظمتهم الفكرية الخاصة، التي لا علاقة لها بواقع هذه الأشياء. أما الماديون بالنسبة إليه، فإنهم يحصرون مجال معرفتهم للظواهر في النطاق الخارجي للوعي، الذي يقوم فيه الكائن الواعي فقط بدور تقديمها المادي البحت بصورة حيادية(14). حيث دعا في إطار وضعه لأرضية تياره الفكري الجديد، الذي هو الظواهرية، كما سبق الذكر، والذي هو موضوع دراستنا هذه، دعا

إلى الإعتماد على منهج جديد في تعريف الأشياء، يعتمد بالدرجة الأولى على العودة في هذا التعريف إلى الأشياء نفسها، بعيدا عن الإفتراضات المسبقة، أو البناءات الفكرية الجاهزة. وهذا من خلال المفهوم، الذي أعطاه لعلمه (الظاهرتية)، والمتمثل في أنه عبارة عن منهج، يقوم على دراسة الأشياء نفسها، أي معرفة العالم كما يبدو طبيعيا لنا خارج أي بناء مفهومي. وهو منهج محايد كما وصفه هوسرل لا يحتاج إلى التجارب الذاتية، ولا المعطيات الخارجية، بل فقط إلى مصطلح الظاهرتية كما تبدو لنا(15).

ويتجلى مما سبق، أن هوسرل بنى مفهومه للظاهرتية على ما أسماه: l'intentionnalité de la conscience - قصدية الوعي، أي هي وعي الوعي بالشيء الذي يبقى متعال (transcendant) - عنه - أي غير مندمج مع الوعي - بتعبير آخر أن الكائن الواعي تجاه استهدافه للشيء يعي فعله هذا، والذي بواسطته يعطي لهذا الأخير «une signification: مدلولا معينا» ليس هو منتوج وعيه الخالص، ولا هو معطية تجريبية مادية صرفة، بل هو عبارة عن ذات l'essence، الشيء، أو الموضوع محل الإستهداف(16).

إن هوسرل في تأسيس علم الظاهرتية انطلق في شرحه لأسسها النظرية من العلاقة الإرتباطية بين الكائن الواعي، والموضوع محل الوعي وفق شروط معينة تؤدي في الأخير إلى التعرف على الأشياء بواسطة ذواتها، التي هي عبارة عن مدلولات اتصالية ذات خصائص منفردة، نتعرض إليها بالتفصيل أثناء تناول هذه النقطة فيما بعد. لأن الشيء الذي نحرص على تسجيله هنا يتمثل في أن هذا الباحث المفكر لم يخرج في وضعه لأسس علمه عن وعي الإنسان تجاه ذاته، والكائنات الأخرى - أي تلك العلاقة الواعية التي تدخل الإنسان مع شيء آخر،

والتي تشكل لدى باحثي الإعلام والإتصال أساس مفهومهم للإتصال(17).

كما أن اعتماد هوسرل في إطار اهتماماته بعلم النفس التجريبي، على ما أسماه بذات الشيء الذي هو عبارة لديه عن مدلول هذا الشيء، يبين لنا مرة ثانية عن استخدامه لمصطلح علمي (مدلول) شكل فيما بعد محورا أساسيا في دراسات الإعلام والإتصال، خاصة لدى «ديفيد برلو» في شرحه لنموذجه الإتصالي، وطرحه لموضوع مهارات الإتصال في إطار تناوله لنقطة ترميز الفكر في العملية الإتصالية، أي دراسة العلاقة بين الشيء، ومدلوله، والرمز (الكلمة) المستخدم في التعبير عنه(18). مما يوضح أن هوسرل في وضعه لعلم الظاهرتية لم يخرج عن إطار شرحه للعلاقة الإتصالية، التي تحدث بين الإنسان وذاته، بين الإنسان والأشياء الأخرى، التي هي أحد المواضيع الأساسية لدراسات وأبحاث علوم الإتصال. وقبل الخوض في شرح هذه العلاقة وفق طرح هذا الباحث، وعلاقتها بالبحث في الإعلام والإتصال، التي هي صميم هذه الدراسة، لا بد من التمهيد إلى ذلك بالتعرف على المرجعية الفكرية لهوسرل، التي كانت منطلقا لمنهجه العلمي. حتى نتمكن من فتح مجالات أوسع تسهل لنا مهمة البحث لهذا الموضوع وفق ما اقترح في العنوان.

استمد هوسرل طرحه لعلم الظاهرتية ومنهجها العلمي من دراسته للرياضيات، التي بدأ بها مشواره العلمي في جامعة ويبرتراس حتى سنة 1884 كما سلف الذكر، ومن دراسته للمنهج المعرفي الجديد الذي أوجده فرانز برانتانو في مجال علم النفس التجريبي، والذي فرق بتطبيقه بين الظواهر النفسية، التي تحمل وعيا قصديا للشيء (نظرة واعية للشيء)، والظواهر الطبيعية، ليصل في النهاية إلى صياغة قاعدته المعروفة في علم النفس التجريبي، والمتمثلة في أن: «لا يمكن لأحد أن يشك حقيقة في أن الحالة النفسية التي يشعر بها داخله لا توجد، ولا توجد كما

هو شأن الحالة التي يحس بها». وهي القاعدة العلمية، التي توضح أنه لا تشابه بين شعورنا الداخلي بالشيء واحساسنا الخارجي بما يحيط بنا من ظواهر(19). حيث ساهم هذا التوضيح في نقد الأفكار المادية لكانط التي تربط المعرفة بالشيء الخارجي المنفصل عن الوعي، وكذا أفكار هيغل، التي تربط من جهتها المعرفة بالشيء الداخلي، والمندمج مع الوعي، وفتح المجال أمام هوسرل لتجاوز ما طرحه في منهجه الجديد المطبق في علم النفس التجريبي، الذي لم يتعد حدود الإهتمام بوصف الظواهر النفسية، إلى تطبيق مفاهيم منطقية logiques - رياضية بحثا عن إجابة للتساؤلات، التي طرحها دوما في دراسته لأفكار برانتانو، والتي لم يجد لها جوابا على مستوى طروحات هذا الباحث، مثل قوله: أن العدد يقتصر وجوده على العملية الذهنية على غرار عملية الترقيم، وإذا لم يحصل ذلك، فأن العملية الذهنية ما هي إلا مجرد وصف نفساني، حيث تمكن بذلك من التمييز بين ما هو نفساني، وما هو ظاهرتي(20). مبتعدا بذلك عن أفكار مدرسة برانتانو نحو تأسيس الظاهرتية كمنهج جديد لدراسة الظواهر في وقت عانت فيه العلوم الإنسانية، خاصة علم النفس، أزمة حادة حاولت تخطيها باستعارة المناهج المطبقة في العلوم الطبيعية وتطبيقها، وهذا حسب هوسرل الذي انتقد هذه الخطوة، دون أن تتأكد هذه العلوم من أن مواضيعها تختلف كليا عن مواضيع العلوم الطبيعية لأنه مثلا: أن دراسة الأشياء الطبيعية تتم بطريقة غير مباشرة، ومن خلال فقط أحداث مبعثرة، لا يمكن إثبات وحدتها وتماسكها إلا على المستوى الافتراضي. بينما دراسة الحياة النفسية للإنسان تختلف كلية عن العلوم الطبيعية، بحكم كونها معطيات مباشرة لا تتطلب دراستها أي بناء افتراضي على غرار ما يحصل مثلا في دراسة الظواهر الفزيائية، بل فقط إلى الوصف.

كما ربط هوسرل جذور الأزمة التي عاشتها العلوم الإنسانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين باقدام هذه العلوم على خطوة تطبيق مناهج

العلوم الطبيعية كما سجل من قبل، وهذا قبل قيامها بالتحديد الدقيق لما تدرسه من مواضيع، وتعريفه بصورة كافية. لأن عدم القيام بهذه الخطوة جعل العلوم الإنسانية في دراستها للظواهر لا تفرق بين العوامل الخارجية المتسببة في الظاهرة، وبين مكونات الظاهرة ذاتها، الأمر الذي أدى إلى الوقوع في الخطأ الذي انجرت عنه في أحيان كثيرة العواقب الوخيمة. وبالتالي حال ذلك دون تطور هذه العلوم وإحراز التقدم المحقق في العلوم الطبيعية ذات المواضيع الدقيقة.

ختم هوسرل نقده السالف الذكر للعلوم الإنسانية باقتراح المنهج الظاهرتي، كمنهج يلائم دراسة الظواهر في حد ذاتها، بعيدا عن المفاهيم السابقة أو الأنساق الفكرية الجاهزة. وهو منهج كما نعلم وسطا بين المناهج التي تعتمد على التجربة في تحصيل المعارف، والمناهج التي تستخدم التأمل الميتافيزيقي في بحث الأشياء.

المنهج الظاهرتي

إن المنهج الظاهرتي في علم دراسة الظواهر هو سلوك فكري Attitude de pensée(21) يقوم على سلسلة من الإختزالات التي تؤهل الإنسان لرؤية الظواهر، وفهمها في خالص ظاهرها بعيون جديدة، وساذجة(22).

وإن مفهوم الإختزال هنا لدى هوسرل له مدلول: التصفية purification المتوالية لإزالة الشوائب التي تعكر عملية إتصال الكائن بالظاهرة. لكن متى وكيف يحدث هذا الإختزال؟ إن الإجابة على هذا السؤال مرتبطة بالعودة إلى مبدإ قصدية الوعي: l'intentionnalité الذي بين فيه هوسرل أن الوعي هو دائما وعي بشيء ما. هذا المبدأ الذي يعتبر حجر الأساس بالنسبة للمنهج الظاهرتي، ويقوم على علاقة الوعي بالشيء، الذي هو محل قصده (نظرته الواعية) وهي علاقة صاغها هذا الباحث بكيفية تختلف كليا عن ما طرحه الوضعيون قبله، والذين تصوروا

الوعي في هذه العلاقة محتوى في الشيء، أو ما ذكره المثاليون بهذا الصدد، والذين بدورهم تصوروا الشيء محتوى في الوعي، وهذا من خلال عدم فصل هوسرل بين الوعي والشيء (الظاهرة) واعتبارهما شيئا واحدا غير قابل للانفصال. لأنه لا يمكن أن يوجد الوعي إلا في حالة انعكاسه في الشيء، ولا الشيء خارج هذا الوعي. ومن هنا فإن هوسرل عرف المنهج الظاهرتي بأنه المنهج الذي يقوم على وصف ذوات الوعي، وأفعاله(23).

وإن انعكاس الشيء في الوعي يؤدي في الوقت نفسه إلى بروز الشيء. هذه العملية الإرتباطية غير المنفصلة تؤدي بالكائن الواعي إلى البحث عن البناء الأساسي للشيء المعبر عنه بالذات والتي هي عبارة عن المدلول الأساسي لهذا الشيء في الوعي. لكن كيف يبحث الإنسان بوعيه القصدي عن هذا البناء الأساسي ويتعرف عليه؟ طبعا يقول هوسرل بهذا الصدد على الإنسان أن يلجأ إلى الإختزال الذي هو الأساس الذي يقوم عليه المنهج الظاهرتي في دراسة الظواهر - أي بحثه عن الذوات الأساسية لها في الوعي، وإن مفهوم منهج هنا بالنسبة لهذا الباحث هو مجرد سلوك فكري كما ذكرنا سابقا يتعلم الإنسان فيه رؤية الظواهر، وفهمها في ظاهرها الخالص. وهذا من خلال قيامه بالإختزال الذي هو عبارة عن سلسلة متتالية من التصفية لإزالة الشوائب التي تتسلل إلى علاقة إتصال وعي الإنسان بالظاهرة. وإن الإختزال وفق ذلك يبدأ بتحويل قصدنا عن كل النظريات المتعلقة بالشيء وتركيزه على هذا الشيء نفسه. وهذا أولا بوضع في دائرة عدم الصلاحية لكل التفسيرات المتأتية من النظريات الفلسفية والعلمية، حيث يسمح لنا ذلك بوضع هذا الشيء تحت رقابتنا المباشرة ليتسنى لنا إدراكه الأصيل، والمباشر، وحتى تلك التفسيرات (الفلسفية العلمية) المتعلقة بالمجال الذي يتجلى فيه هذا الشيء لا بد أيضا من ابعادها من نطاق قصدنا(24).

تبعا لما سبق، فإن الهدف الأساسي للمنهج الظاهرتي هو تحليل علاقة الوعي

القصدي بالظواهر لمعرفة كيف تتكون معاني هذه الظواهر، وللوصول إلى هذه المعاني (ذوات، مدلولات) كما ذكرنا لا بد من القيام بالإختزال، الذي هو ليس عملية مقارنة واستنتاج على غرار ما يحدث في الفلسفة، والعلوم التجريبية، بل هو مجرد تصفية الظاهرة من ما هو غير أساسي للوصول إلى الأساسي، ولذا فهذا الإختزال ليس معالجة يدوية، بل مجهود فكري يمارس على الظاهرة، التي نبحث عن معناها، ولكن كيف يمارس؟

إن كيفية بذل هذا المجهود الفكري، أو ما أسماه هوسرل بتقنية التحليل الظاهرتي(25). مستمدة من ما توصل إليه: Berkeley - بركلي في مناظرته مع Locke - لوك: حول علاقة الكل بالأجزاء غير القابلة للإنفصال، والذي مفاده: أنه يوجد الكل الذي أستطيع تمثيل أجزائه منفصلة مثل: رأس بدون جسد، لكن لا أستطيع تمثيل لون بدون امتداد : Etendue أو حركة بدون جسم يتحرك مستخلصا من هذا أنه يستحيل فصل أجزاء كل بواسطة الفكر، ولا تركيبها إلى مجموع جديد، وغير متوقع بالتصور، إلا إذا كانت هذه الأجزاء قابلة للإنفصال في الواقع العملي، ومن هنا يصل بركلي إلى استنتاج ما مفاده: أن العناصر غير القابلة للإنفصال في الواقع، أي بالنسبة للادراك لن تكون (توجد) أبدا بالنسبة للفكر الخالص. من هذه الملاحظة استمد هوسرل تقنية التحليل الظاهرتي، التي تسمح بالوصول إلى أساس الظاهرة، أي ما ينتمي إلى ذاتها. وهذا من خلال تأكيده على أن اللون لا يمكن إدراكه بدون امتداد وبالتالي لا يمكن التفكير فيه بدون هذا الإمتداد. أي أن الفكر هنا لا يمكن أن يدرك إلا ما ينتمي إلى الظاهرة ويشكل أساسها (ذاتها). أما ما ليس له علاقة بها، ما لا ينتمي إليها فيبقى خارج إدراك الوعي. وبالتالي نطرحه جانبا خارج اهتمامنا، وقصدنا في دراستنا الوصفية للظاهرة.

نستخلص في نهاية هذا التحليل للمنهج الظاهرتي بأنه سلوك فكري يمارسه

الشخص على الظاهرة في شكل عمل إختزالي يمكنه من إدراك أساس هذه الظاهرة (ذاتها) بكيفية أصيلة ومباشرة، بعيدا عن الأفكار المسبقة أو المفاهيم الجاهزة (الفلسفية العلمية).

البحث في الإعلام والإتصال

إن التطرق لموضوع البحث في الإعلام والإتصال يفرض علينا أولا تحديد مفهومي الإعلام والإتصال، لنصل في خطوة ثانية إلى تعريف بحث مواضيعهما.

تبعا لذلك فإن الإعلام هو عملية نقل المعلومات بوسائل متعددة (البث، النشر، الإرسال، النقل المباشر) من نقطة إلى أخرى بصدق وأمان (موضوعية)، قصد الإطلاع، والتعريف، أي التأثير الواعي على العقل من أجل الوصول إلى تكوين الرأي الصائب في الوقائع محل الإعلام في جو التفاهم، والمشاركة والثقة المتبادلة بين المرسل والمستقبل(26).

أما الإتصال فهو مفهوم أوسع من الإعلام، لأنه مصطلح يفيد كل علاقة نقيمها مع طرف ثان قَبِل الدخول في هذه العلاقة معنا(27). والإتصال بذلك هو كل عملية تتكون من مرسل، ومستقبل يشتركان في عملية تبادل معلومات في الإتجاهين المتقابلين باستخدام نظام معين من الإشارات، والرموز، والإيماءات، والأصوات المفهومة بين الطرفين. لأن هذا الفهم الواحد هو الذي يضمن التبادل المشترك لهذه المعلومات. وهو بذلك ليس علاقة نشر في اتجاه واحد على غرار الإعلام، بل هو عملية ذات إتجاهين في شكل مد وجزر، أي أخذ وعطاء.

وبالرغم من هذا المفهوم العام للإتصال إلا أنه يبقى مفهوم هذا المصطلح مقتصرا على عملية التبادل المباشر للمعلومات بين طرفين في إطار ما يعرف

بالإتصال الشخصي - أي أنه يشير فقط إلى صنف واحد من أنواع الإتصال، ويتجاهل الأنواع الأخرى مثل تلك التي تحدث بين الفرد وذاته وبينه وبين الطبيعة الخ .... لذا فإنّ بعض الباحثين(28) ربطوا تعريفهم للإتصال بكل حركة واعية للإنسان، سواء مع ذاته أو مع الكائنات الأخرى، بغض النظر عن هذه الكائنات، سواء كانت انسانا أو حيوانا أو مادة طبيعية. لأن الحركة الواعية للإنسان، سواء كان مرسلا أو مستقبلا للمعلومات، هي التي تعطي لهذه العلاقة مضمونا ما، أي مدلولا يشكل في حد ذاته جوهرها وروحها. وبدون هذه الحركة الواعية للإنسان في إتصاله مع ذاته، ومع غيره لن يكون لهذه العملية موضوعا (معنى) وبالتالي لن يكون هناك إتصال بتاتا. ولهذا فإن التعريف الثاني للإتصال هو المفهوم الأوفى والأشمل لهذا المصطلح.

وطبقا لما ورد من تعاريف لمصطلحي الإعلام والإتصال، فإنه يمكن القول أن مفهوم البحث في مواضيعهما هو كل جهد فكري منظم يمكن من جمع وتنظيم، وتصنيف، وبرمجة المعلومات والبيانات الموضوعية الخاصة بالظواهر والأشياء(29). طبعا ذات العلاقة بمواضيع الإعلام والإتصال.

ومن ذلك، فإن البحث في الإعلام والإتصال هو تلك الجهود الفكرية المنظمة، التي تتناول بالدراسة والتحليل كل نشاط إنساني في شكل علاقة اتصال واعية يقيمها الفرد، أو الأفراد مع ذواتهم، أو غيرهم من الكائنات الأخرى. وهذا بغض النظر عن المجال الذي يجري فيه هذا النشاط، أو الوسيلة التي تستخدم في تنفيذه، أو الطريقة التي يتم بها. وبهذا يمكن القول أن كل علاقة إتصال واعية هي مجال لأبحاث الإعلام والإتصال، سواء من حيث دراسة الأدوات، والكيفيات التي تتم بها هذه العلاقة، أو من حيث مضمونها، أو الآثار المترتبة عن هذا المضمون على مستوى الأطراف المستقبلة له. لذا فإن العديد من الباحثين عرفوا مجال البحث في الإعلام والإتصال بذلك الإطار من الموضوعات ذات العلاقة بوسائل

الإتصال الجماهيري، وعملية الإتصال بعناصرها المختلفة وطرقها المتنوعة، وما يمكن أن تحدثه من تأثير على المجتمع، أو ما تتركه من آثار على الإنسان والجماعات(30).

ومنذ فجر التاريخ، والبدايات الأولى للكائن الإنساني، فإن هذا الأخير من أجل الحفاظ على بقائه في الطبيعة، وضمان استمرار حياته، اعتمد على الإتصال، ولو في شكله البسيط، حيث لعبت الإستجابة الموروثة، والغريزة دورا أساسيا في تحقيق هذا الإتصال في التعرف على محيطه الطبيعي، والتكيف معه لإشباع متطلباته الحياتية. وهذا بفضل قدرته على الإتصال الواعي مع كل ما يحيط به من ظواهر مختلفة ومع نفسه في إدراك أساسيات هذه الظواهر (ذوات) إدراكا قصديا، وبأعطائها مدلولات محددة (مضمون معين) على مستوى وعيه. وبهذه الكيفية تعرف على الأشياء، الضارة منها والنافعة، حيث احتمى من الظواهر التي هددت حياته، فسكن الكهوف واتخذ من الحجارة سلاحا، في صد هجمات أعدائه، وصيد الحيوانات، واكتشف مع مرور الزمن اللغة ثم الكتابة الخ ....(31) وحتى في أيامنا هذه فإن الإنسان في تعرفه على مختلف الظواهر ذات الإرتباط بحياته، يعتمد على الإتصال في ادراكه الواعي لها. وهذا ليس عبر الخبرة الذاتية كما فعل الإنسان الأول، وإنما من خلال ما نطلق عليه اليوم البحث العلمي الأكاديمي. أي من خلال تنظيم جهده الفكري للتمكن من جمع الحقائق والبيانات الخاصة بهذه الظواهر، ثم ترتيبها، وبرمجتها وفق تصور معين. وهو ما يوضح أن حاجة بحث الأشياء لدى الإنسان وجدت بوجوده الأول، وتطورت بتطوره حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم من تقدم، وتستمر باستمراره. وفي مسيرتها الطويلة هذه كان هدفها الذي لم يتغير هو التعرف الواعي على الشيء لادراكه كما هو. من خلال علاقة الإتصال التي تربط هذا الكائن بالشيء، بطرق وأدوات مختلفة، لم تتوقف حتى يومنا هذا عن التطور. وإن رجل الإعلام اليوم في بحثه لعلاقة الإنسان مع

ذاته أو مع غيره من الأشياء الأخرى (الإتصال) في حاجة ماسة إلى تطوير إمكانيات بحثه أكثر لدراسة عملية الإتصال هذه كما هي في الحيز الواقعي، وبصورة موضوعية بعيدا عن الأحكام المسبقة، والأفكار الذاتية، والمفاهيم الجاهزة كما ذكر هوسرل في تناول موضوع المنهج الظاهرتي في علم دراسة الظواهر. لأن ذلك يساعده على إجراء هذه الدراسة في ظروف عادية، وفي حدود التعرف على الظاهرة نفسها. مما يوضح العلاقة الوثيقة بين أبحاث الإعلام والإتصال، وما طرحه هذا الباحث الفيلسوف من قواعد في دراسة الظواهر كما يتبين لنا ذلك في النقطة الموالية.

المنهج الظاهرتي وأبحاث الإعلام والإتصال

يرى العديد من الباحثين في نظرتهم إلى الظاهرتية، أنها تمثل منهج علاقات الكائن الواعي مع الشيء. حيث يحصرون هدف هذا المنهج في تمكين الباحث من الإتصال الواضح، والصريح مع العالم الخارجي كما هو، قصد التعرف عليه في صورته الطبيعية، ووصفه بدقة، وموضوعية(32).

ومن جهة أخرى فإن البحث في الإعلام والإتصال لدى الدارسين المؤسسين لهذا النوع من النشاط العلمي كان محوره دراسة عمليات الإتصال بأشكالها وأدواتها، ومضامينها، وأطرافها المختلفة(33) قصد التعرف على الظاهرة الإعلامية، والتحكم فيها، وبذلك لما نذكر البحث في الإعلام والإتصال فإننا نقصد بهذا الكلام دراسة علاقات الكائن الإنسان الفرد مع نفسه أو مع غيره من الكائنات الأخرى، التي هي بالنسبة إليه أشياء (ظواهر) قابلة للإدراك بواسطة النظرة الواعية التي تمكنه من التعرف على الأشياء، واعطائها مدلولات معينة على مستوى وعيه في شكل معرفة. أو كما ذكر علماء الإتصال وضعها في ترميز،

لأنه بدون هذه العملية كما ذكر ولبر شرام(34) لن يستطيع الفرد الوصول إلى معرفة أساسيات الأشياء محل قصده الواعي، ونقل هذه المعرفة إلى غيره أو العودة إليها عند الحاجة بواسطة التذكر.

ونستخلص من عرضنا لما طرحه هوسرل على مستوى المنهج الظاهرتي، وما ذكر بشأن أبحاث الإعلام والإتصال أن الموضوعين لهما صلة قوية ببعضهما البعض في دراسة عمليات اتصال الكائن الإنساني بالأشياء التي تكوّن محيطه، قصد تكوين معرفة أساسية عنها، خاصة وأننا نسجل أن البحث لمواضيع الإعلام والإتصال هو في بدايات مشواره العلمي، ويفتقر إلى الرصيد المعرفي (نظريات) وأدوات التحليل المستقلة الكفيلة بتحقيق تقدمه واستقلالية موضوعاته عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

وطبقا لذلك فإن المنهج الظاهرتي يمكن أن يؤدي دورا أساسيا في وصف الظاهرة الإعلامية كما هي بعيدا عن أي أفكار مسبقة، أو طروحات ذاتية، خاصة على مستوى التعرف على هذه الظواهر في بيئتها الأصيلة، التي لم تخضع بعد إلى أي نوع من أنواع البحث، والمعالجة. حيث ما زالت مجالا بكرا للتنقيب على غرار ما تزخر به مجتمعاتنا العربية الإسلامية من عادات اجتماعية، وتراث ثقافي نجهله تماما، وبالتالي يمكن توظيف هذا المنهج في استكشاف هذه المجالات، التي لا تتوفر حولها دراسات سابقة تكون لنا منطلقا في بحث الجوانب المتعلقة بأسس وخصائص ظاهرة الإتصال في هذه المجتمعات عبر وصفها وصفا موضوعيا في إطار سياقاتها الاجتماعية. ولن يتأتى لنا ذلك إلا من خلال البحث عن مدلولها في وعي انسان هذه المجتمعات التقليدية، أي داخل نظرته الواعية لها، حتى نتمكن من تحديد المعنى القصدي في وعي هذا الإنسان لهذه الظواهر، قصد الوصول من خلاله إلى المضمون الحقيقي المعطى لها، والذي هو محل بحثنا داخل هذه المجتمعات السالفة الذكر، لأنه بدون ذلك لا يمكن أبدا فهم الإتصال وطبيعته

في المجال السابق الذكر، وبالتالي البقاء في موقف العاجز عن القيام بذلك، أو الإنطلاق من منطلقات نظرية ومنهجية لا علاقة لها بما ندرسه على مستوى النطاق الذي نحن بصدد الحديث عنه. الشيء الذي يؤدي بنا إلى تكوين نتائج لا علاقة لها نهائيا بالموضوع محل البحث. ومن ذلك فإن المنهج الظاهرتي يمكن أن يؤدي دورا أساسيا في وصف ظواهر الإعلام والإتصال، خاصة على صعيد مجالات إجتماعية لا تتوفر فيها المعطيات النظرية والمنهجية، التي تسمح بتطبيق المناهج التي تعتمد على الاستقواء في تحصيل معلوماتها باستخدام أداتي الملاحظة والتجربة.

الهوامش:

(1) - Jean Jürgen Habermas. La téchnique de la science comme idiologie, traduit par: René Ladmiral, 1ère Edition en français, Gallimard, 1975, p. 3.

(2) - UNESCO. Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humaines. Mouton, UNESCO, 1970, pp. 38, 40, 41.

(3) - Madeleine Grawitz. Méthodes des sciences sociales, 4ème Edition, Dalloz, Paris, 1970, p. 23.

(4) - م. روزنتال. الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، 1974، ص 472.

(5) - الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، طلال العشري، عبد الرشيد الصادق، دار القلم، بيروت، د. ت. ص 509.

(6) - المرجع السابق، ص 510.

(7) - André Dartigues. Qu'est-ce que la phénoménologie, Edward Privat, Toulouse, 1972, p. 7.

(8) - Angé Gillon, Hollier Larrousse, Marceau et Cie. Grand larrousse Encyclopédique, Tome: 8, Librairie Larrousse, Paris, 1963, p. 406.

(9) - André Dartigues, op. cit., p. 8.

(10) - Angé Gillon, Hollier Larrousse, Marceau et Cie. Grand Larrousse Encyclopédique, Tome: 8, op. cit., p. 407.

(11) - Madeleine Grawitz. op. cit., p. 13.

(12) - André Dartigues, op. cit., p. 15.

(13) - الموسوعة الفلسفية المختصرة، المرجع السابق الذكر، ص 509.

(14) - Jean François Lyotard La phénoménologie, Presse Universitaire de France, Paris, 1969, p. 7.

(15) - Roger Caillois. Panorama des idées contemporaines, sous la direction de Géaton Picon, Gallimard, 1957, p. 55.

(16) - Raoul Mortier. Dictionnaire Encyclopédique Quillet, Tome: P.R., Librairie Aristote, Quillet, Paris, 1934, p. 5177.

(17) - عبد الله حيدري. الإعلام والإتصال، وقضايا التنمية في العالم العربي، المجلة التونسية لعلوم الإتصال، العدد: 22 - جويلية - ديسمبر 1992، المطبعة الرسمية، تونس العاصمة، ص 14.

(18) - جيهان أحمد رشتي. الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1971، ص 110.

(19) - André Dartigues. op. cit., p. 6.

(20) - الموسوعة الفلسفية المختصرة، المرجع السابق الذكر، ص 510.

(21) - Edmont Husserl. L'idée de la phénoménologie, traduit de l'Allemand par Alexandre Lowit, Presse Universitaire de France, 1984, p. 45.

(22) - Paul Amselek. Méthode phénoménologique et théorie du droit et de jurisprudence, Paris, 1964, p. 15.

(23) - André Dartigues. op. cit., p. 25.

(24) - Paul Amselek. op. cit., p. 15.

(25) - André Dartigues. op. cit., p. 35.

(26) - إبراهيم إمام. فن العلاقات العامة والإعلام، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1968، ص 168.

(27) - Pierre Salles, Yves Simon, Alain Cota. L'expression et la communication dans la vie sociale et professionnelle, Dumond, Paris, 1970, p. 4.

(28) - عبد الله حيدري، المرجع السابق الذكر، ص 16.

(29) - إحسان محمد الحسن. الأسس العلمية لمناهج البحث العلمي، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص 7.

(30) - سمير محمد حسين. بحوث الإعلام، مجلة البحوث، العدد: 3 - تموز، 1980، المركز العربي لبحوث المستعمين والمشاهدين، بغداد، ص 62.

(31) - ملفين ل. دفلور، ساندرا. ج. بال روكاش. نظريات وسائل الإعلام، ترجمة: كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص 42.

(32) - Paul Amselek. op. cit., p. 9.

(33) - هادي نعمان الهيتي. حدود ومجالات استخدام مناهج وطرق، وأدوات البحث العلمي في بحوث الإذاعة والتلفزيون في الوطن العربي، مجلة البحوث، العدد: 7 - ديسمبر 1982، المرجع السابق الذكر، ص 132.

(34) - جيهان أحمد رشتي، المرجع السابق الذكر، ص 83.